الإنسانُ والزَّمان في شعرِ النَّمر بن تولب العُكلي
قراءةٌ في الثُّنائيَّات الضِّديَّة

د. محمد مسعود[1]

د. عبد الرَّحمن العبد الله[2]

آلاء عبد الصَّمد السَّلامة[3]

الملخص

إنَّ ثُنائيَّات الشَّباب والشَّيخوخة، والقدرة والعجز، والحياة والموت، والوجود والعدم، قد قضَّت مضجع الإنسان، إذ إنَّه طالما حلمُ باستمراريَّة شبابه، وقوَّته، وسطوته، والخلود المُطلق، وأرهبته فكرة تلاشي وجوده، ولا سيما أنَّ كلَّ شيء في الكون آيلٌ للعدم.

فكيف تعامل مع هذه الحقيقة؟ وهل تقبَّلها؟ أو أنَّه سعى لاختداع الزَّمن، ومخاتلة الدَّهر بحيله، وذلك باستحضار الماضي، وإنكار الحاضر، وتوظيف الثُّنائيَّات الضِّدِّيَّة لمقابلة كلَّ ضدٍّ بضدِّه؛ تارة لنفيه، و أخرى لتتميمه وتأكيده، وإن كان قد تقبَّل حقيقة الكون، وسلَّم بها، فكيف عبَّر عن ذلك؟ وما الدَّور الذي أدَّته ثقافته، وميوله الدينيَّة في رسم تصوُّره لسرِّ الحياة، وأصل الوجود، وحتميَّة الموت؟

وهذا ما سعى البحث لتتبُّعه، وتقصِّيه في شعر النَّمر بن تولب، في ضوء دراسة نقديَّة حداثيَّة، تحاول الولوج إلى عمق معانيه وجوهرها، مُهمِّشة القشور الواهية، والمعاني السَّطحيَّة الظَّاهرة.

الكلمات المفتاحيّة: الزَّمان، الإنسان، الثُّنائيَّات الضِّدِّيَّة، النَّمر .

المُقدِّمة:

لطالما كان الخُلود هاجس الإنسان مُنذ القِدم؛ إذ أرهبته فكرة الموت، والفناء، والعَدميَّة، وذلك عندما رأى أنَّ العدم والفناء يَطالُ كُلَّ حيٍّ على وجه المعمورة.

[1] أستاذ مساعد ، قسم اللُّغة العربيَّة، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة الفرات.
[2] مُدرِّس ، قسم اللُّغة العربيَّة، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة الفرات.
[3] طالبة ماجستير ، قسم اللُّغة العربيَّة، كليَّة الآداب والعلوم الإنسانيَّة، جامعة الفرات.

ولأنَّ الموت تجربةٌ فريدةٌ من نوعها، لا تُكرَّر، ولا نستطيع معرفة كُنهها، وما ورائها إن لم نخُضها، غدا سرَّاً مُتلفِّعاً بالغموض، والرَّهبة، والتَّوجُّس، ولهذا نشأ صراعٌ محمومٌ بين كُلٍّ من الإنسان والزَّمان، فالزَّمان هو ذاك الوحش الضَّاري الذي يُدني كُلَّ كائنٍ حيٍّ من حتفه بالتقادم ومرور الأيام.

والشِّعر فنٌ يُعبِّر عن أفكار البشر، ورؤاهم في زمنٍ مُعيَّن، ويُصوِّر تجاربهم، وهواجسهم، ومشاعرهم، لذلك آثرنا مُقاربة قضيَّة الإنسان والزِّمان في إبداع أحد الشعراء العصر المخضرمين، العصر الذي يُعدُّ نبعاً لا ينضب من السِّحر الغامض، والإبداع الثَّرّ، إضافةً إلى ثقله التّراثيّ، والتّاريخيّ، والمعرفيّ، مُتقصِّين في محاولتنا الثُّنائيَّات الضِّديَّة التي تكتنفها علاقة (الإنسان والزَّمان) من مثل: (الوجود/العدم، الحياة/الموت، الماضي/الحاضر، الشَّباب/ الشَّيخوخة)

أهميَّة البحث:

وتأتي أهميّة البحث من أنَّ النَّصّ الشِّعريّ القديم لايزال يفيض حيويَّة، وينزُّ سحراً، وغموضاً، وجمالاً، فهو ينتظر من يميطُ اللِّثام عن مكنوناته، ويكشف الحُجب عن أسراره، ويُفتِّق دلالاته المُضمرة عبر سبر أغوراه، والغوص في أعماقه.

أهداف البحث:

أمَّا الهدف الذي يسعى البحث إلى بلوغه فيتمثَّل بالكشف عن رؤية الشَّاعر الوجوديَّة للكون، ونظرته للزَّمان وتقلُّبات الدَّهر، وما يجلبه من ضعفٍ، وعجزٍ، ونكبات، إضافةً إلى إغناء المكتبة العربيّة ببحثٍ يجمع بين الحداثة (المتمثِّلة بالثُّنائيَّات الضِّديَّة)، والتُّراث (المتمثِّل بالنَّصّ الشِّعريّ القديم) .

منهج البحث:

وأمَّا المنهج الذي اتّكأ عليه البحث فهو البنيويّ التّكوينيّ، الذي حاولنا بوساطته استنطاق النُّصوص، وفتح مغاليقها، والوقوف على رموزها، وما تُخفي وراءها من مدلولات، وصولاً إلى رؤية العالم.

الدِّراسات السابقة:

وأمَّا الدِّراسات السَّابقة التي عُنيت بجوانب مُقارِبَة لبحثنا، وكانت مُعيناً ومنهلاً لإنجاز البحث، و ضوءًا يُستَنار به، فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

(الإنسان في الشِّعر الجاهليّ، عبد الغني أحمد زيتوني/ جدليّة التَّضاد في الموروث البلاغيّ والنَّقديّ، حسين جداونه/ جماليَّات التَّحليل الثَّقافي الشِّعر الجاهليّ أنموذجاً، يوسف عليمات/ مشكلة الإنسان، زكريا ابراهيم/ الوجود والعدم، مصطفى محمود).

ثُنائيَّة الوجود والعدم:

أرَّقت ثنائيَّة (الوجود والعدم) الفلاسفة والمفكِّرين والشُّعراء، فتأمَّلوا ما حولهم، وأطلقوا العنان لتساؤلاتهم؛ بُغية الوصول إلى إجاباتٍ تروي ظمأ رغبتهم بالمعرفة.

والوجود في أبسط تعريفٍ له هو "مقابلٌ للعدم...وينقسم إلى وجود خارجيّ، ووجود ذهنيّ. فالوجود الخارجيّ عبارة عن كون الشّيء في الأعيان، وهو الوجود الماديّ، والوجود الذهنيّ عبارة عن كون الشّيء في الأذهان، وهو الوجود العقليّ أو المنطقيّ"[1]، فمثلاً وجود (الإنسان، النّبات، الحيوان، الكواكب، الشّمس...وغيرها) هو وجود مادّيّ ظاهرٌ للأعيان، وهذه الموجودات آيلةٌ للعدم طال وجودها أم قَصُر ، في حين أنَّ وجود (العدالة، الصّدق، الأمانة، النّزاهة...)وجود ذهنيّ ندركه بالعقل، ونشعر به بالقلب، وهذه الموجودات قد تكون موجودة عند أصحابها، وقد تكون معدومة، أو آيلة للعدم.

[1] **صليبا** جميل، 1982- **المعجم الفلسفي**، د.ط، ج3، دار الكتاب اللبناني، لبنان، 555.

وعليه، فالوجود يشمل كلَّ ما في الكون من موجودات حسيَّة، أو ذهنيَّة، ويقابله العدم (اللّا شيء)، فلا وجود بلا عدم، ولا عدم بلا وجود.

وحقيقة الأمر أنَّ العدم والوجود يُشكِّلان نسيج العالم، ومفهوم العدم ارتبط بما لا وجود له، وهو اللّا موجود؛ أي المادَّة التي تفتقر إلى صورة، أمَّا وظيفته فتكمن في جعل الموجود مكشوفاً متجليّاً. والخُلاصة إنَّ العدم هو الوجود ذاته؛ إذ لا نستطيع أن نقف عند مسألة الوجود إلَّا عن طريق مواجهة مسألة العدم أولاً، فالعدم والوجود تعبير عن شيء واحد[1].

وإن عدنا بالذّاكرة إلى بداية الحياة على الأرض نجد أنَّه عند نزول أبي البشريَّة(آدم عليه السّلام) على الأرض بوصفه أوَّل إنسان يطؤها عاين الموجودات حوله، وحاول استكشافها، ومعرفة مكانه وقيمته الوجوديّة وسط المخلوقات والكائنات التي تكتنفها الأرض، ومع مرور الزَّمن وتطوُّر الحياة الإنسانيَّة على الأرض بدأ التَّطوُّر يشمل فكر الإنسان ورؤاه، فبدأ بالتأمُّل أكثر، والتَّفكير، والتَّساؤل، ومحاولة معرفة المزيد... وتوصَّل إلى أنَّ الموجودات كلَّها مصيرها إلى الفناء والعدميَّة، وكذا حاله؛ فكلَّما تقدَّم الزّمن به يدنو من عدميَّته، وتلاشي وجوده .

ومن هنا أصبح الزَّمن عدوّه الأكبر؛ إذ إنَّه يسلب منه لذَّة العيش، واستمراريّة الحياة، والقوَّة ، و" في مواجهة الزّمن وخلوده، وفناء الإنسان وموته، يبدو الإنسان نقطة صغيرة في محيط واسع، تهدِّده أمواج الفناء، وينتظره الضياع والنّسيان"[2].

ولم تكن هذه هي النّظرة الوحيدة للزَّمن؛ أي على أنَّه عدوّ وسبب الزّوال والفناء، فهو أيضاً سبب القوّة والشَّباب؛ لذا فالعلاقة جدليَّة بين الإنسان والزّمان، فهو يريد أن يتقدَّم به العُمر عندما يكون طفلاً أو شابّاً صغيراً ؛ ليمتلك قوّة وفتوّة الشّباب، ويُحقِّق ما يصبو إليه أيَّاً كان، و يتمنّى أحياناً أن يسير الزّمن مُسرعاً إن صادفته أياماً عسيرة بُغية التّخلُّص منها، وهكذا يكون قد توسَّط بين كرهٍ للزّمن الذي سرق منه شبابه وقوَّته وأدناه من أجله، وحبٍّ للزَّمن ذاته الذي جعله يصل إلى فترة الشّباب والقوّة، ورُبَّما يتمنّى أن يكون بمقدوره التَّحكُّم بالزَّمن وإيقافه عند المحطَّة التي يرى نفسه فيها في أوج سعادته، وقوَّته، وسطوته.

والإنسان تركيبةٌ عجيبةٌ متناقضة فهو "يجمع الشّتيتين، ويُؤلِّف بين الضِّدَّين، ويحمل بين جنباته الجنَّة والنَّار...إنّه المخلوق الهجين الذي يمتزج فيه النّور والدَّم، الشُّعاع والطِّين، الطَّهارة والرِّجس، الأمل واليأس، إنَّه الموجود الذي يعيش في الزَّمان و لا يفتأ يحنُّ إلى الأبديَّة، والموجود الذي لا يكُفُّ عن التَّحسُّر على الماضي، والتَّطلُّع نحو المستقبل، دون أن يكون في وسعه يوماً أن يقنع بالحاضر"[3].

ولا غرو أن يكون الإنسان حاملاً لكلِّ هذه المتناقضات في داخله، في حين أنَّه جزء من هذا الكون الشّاسع، الذي يمور بجملة من الثّنائيّات الضّديَّة، بل إنّه قائمٌ ومتوازنٌ لوجودها، فكل ثنائيّة في هذا الكون مقابلةٌ لأختها، ومتمِّمةٌ لها، ومُشكِّلة وإيّاها تحالفاً لا ينفصل، وتواتراً جعل العقل الإنسانيّ في حيرة من أمره.

إنَّ ثنائيَّة(الوجود والعدم) عبارةٌ عن مفردتين مرتبطتين ببعضهما، فـ" العدم ضد الوجود...قال ابن سينا...العدم ليس بذات موجودة على الإطلاق، ولا معدومة على الإطلاق، بل هو ارتفاع الذّات الوجوديَّة بالقوّة ...ومعنى العدم عند(هيجل) مساوٍ لمعنى الوجود...<والبعض رأى أنّ> العدم عنوان الوجود، (سارتر): إنّ العدم متأخِّر على الوجود، وهو يتبعه دائماً"[4]. ومن هذه الثّنائيّة (الوجود والعدم) تنبثق علاقة (الإنسان والزّمان).

---

[1] ينظر: **هيدجر** مارتن، 1964- **ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن وماهية الشعر**، تر: فؤاد كامل عبد العزيز ومحمود رجب السيّد، مراجعة: عبد الرحمن البدوي، دار النهضة العربيّة، شارع عبد الخالق ثروت، ص98-101.

[2] **عبدالجليل** حسني، 2001- **الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص**. ط1، مؤسَّسة مختار، القاهرة ، ص309.

[3] **ابراهيم** زكريا، د.ت- **مشكلة الإنسان**، د.ط، مكتبة مصر، القاهرة، ص9.

[4] **صليبا** جميل، 1982- **المعجم الفلسفي**، ج2، ص64-65.

والضـدُّ على ما نعلم هو مُتمِّم، أي لم يكن هناك وجود للعدم لو لم يكن الوجود موجوداً، ولم يكن هناك وجود للوجود لو لم يكن العدم معدوماً، و" الوجود والعدم كانا من البداية كالحقيقة والمرآة...الحقيقة فاعلة والمرآة قابلة ناقلة ولكنَّها سالبة لا تضيف من عندها شيئاً ولا تقدر بذاتها على شيء سوى أن يظهر فيها الأمر على ما هو عليه"[1] ، فوجودنا مثلاً يؤثِّر في الكون، والكائنات حولنا، وفي الموجودات من بشرٍ، وحجرٍ، وحيوان، لذلك الوجود فاعل.

أمَّا اندثارنا، وموتنا (انعدامنا من الوجود) فلا تأثير له سوى ما فعلناه في أثناء وجودنا، أي نصبح أيقونة في ذاكرة الزَّمن وسيرورته، ورُبَّما يبقى أثرنا ووجودنا روحيَّاً فقط بعد تلاشينا ماديّاً، مثلاً: غرسٌ يغرسه أحدنا، وبعد وفاة الغارس يستمرّ الغرس في النُّمو ويغدو شجرة، وهذه الشّجرة تُظِلُّ مارَّاً، أو مريضاً، أو طفلاً...هذا هو الأثر الرّوحي لوجود الذّات المعدومة التي فتك بها الزّمن، وابتلعتها الأرض، وحلَّلتها التّربة.

ولكن في بعض الأحايين يشعر الإنسان بفقدان الإحساس بغائيَّة الوجود، فيبدأ القلق والخوف من الموت يُسيطران على وعيه، وكذا الحال عند الإنسان في العصر الجاهليّ، فالقلق من الموت سببه الوجود؛ فنحن كما ولدنا سنموت وتنتهي رحلتنا الحياتيّة، ونظرة الإنسان للوجود والزّمن المرتبطة بالتّفسير الوجوديّ تفتقد للأمن النفسي الذي يأتي بالتّسليم بالقضاء والقدر، ووجود قوى عُليا تحكم الكون وتنظمه، وتضمن استمراريَّة الوجود[2].

والجاهليّ كان يجهل هذا الأمر قبل مجيء الإسلام، وبعد مجيء الإسلام اختفى هذا القلق، وأصبح على دراية بالحياة الآخرة التي تبدأ بعد الحياة الدّنيا، وأنَّ حياتنا الدُّنيا ماهي إلا رحلة مؤقّتة، وأنَّ حياتنا السّرمديَّة تنتظرنا بعد الموت...

إنّ موضوع الحياة بعد الموت لم يكن الجاهليّ قد تيقّن منه قبل الإسلام وبثّ تعاليمه، فكان يُفكِّر، ويفترض، ويُرجِّح إلى ماذا سيؤول إليه بعد الموت، وهذا كان سبب قلقه من الوجود والزّمن. قلقٌ بألّا يكون بعد الموت سوى الموت والعدم فقط، لذلك كانت مشكلة الجاهليّ الأزليّة هي (الخلود) وشغلته كثيراً هذه الفكرة؛ إذ لم يكن لديه إيمان، ولا معرفة ويقين بالحياة الآخرة، وكان تقدُّمه بالعُمر، وتراجع القوّة والشّباب، واندثارهما، يرهبه، وآثار الشّيخوخة ودنوّ الأجل يؤرِّقه، ويُعدِّه كابوساً مرعباً يريد الاستيقاظ منه.

وقد تراوحت نظرة الجاهليّ للزّمن ما بين زمنٍ خائن، وزمنٍ ذي سطوةٍ عليه.

الزّمن الخائن:

إنَّ محاولة السّيطرة على سيرورة الحياة، والرَّغبة في استبقاء مرحلة ما، وامتلاك زمام الأمور جميعها، نزعةٌ رغب بها الإنسان قديماً، ولايزال. لكن هيهات أن يتحقَّق له هذا؛ فما نحن إلّا عنصرٌ من عناصر هذه الطبيعة، وجزءٌ من هذا الكون الغامض، وقد وعى الجاهليّ ذلك وأرهبه انعدام سيطرته، والقوى الغيبيَّة المُسيِّرة للكون، والمُسيِّرة للزمان وغدره –كما يراه الإنسان- فالزّمان بنظره هو من سلبه شبابه وقوَّته بعد أن منحهما إيّاه منحاً مؤقتاً، وملَّكه إيّاها في مرحلةٍ عمريَّةٍ مُعيَّنة ووجيزة، فما لبث أن ظهرت عليه أمارات الشّيخوخة، والهرم، والعجز، وكان الشّيب النّسق العلاماتيّ الأوَّل الدَّال على ذلك.

وقد صوَّر شعراء الجاهليَّة معاناتهم مع عدوّهم الألدّ (الزَّمان) الذي جعلهم خائري القوى، ومسلوبي الإرادة، ينتظرهم شبح الموت بعد عزوف الجميلات والغواني عنهم، أو بعد عجزهم واستلاب قوَّتهم، فأصبح الماضي السَّعيد هو سلوانهم بما فيه من شتَّى أمارات الشّباب الرّاحل.

[1] **محمود** مصطفى،1986- **الوجود والعدم**، د.ط، دار العودة، بيروت، ص67.

[2] ينظر: **عبدالجليل** حسني، 2001- **الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص**، ص 303-304.

طالما كان للشَّيب سُلطةٌ قاهرةٌ للإنسان، وعامل هدم للتّآلف الإنسانيّ، إذ يُخلّ المُكوّن الجماليّ، ويمحو علامات الخصب، والحيويّة ، والحياة، ويحاول الإنسان الهروب من الزَّمن من خلال الرِّحلة إلى الماضي، وهذا دليلٌ دامغ على عجزه، ويأسه، وشعوره بغلبة الزَّمن، وانتصاره عليه[1].

فكُلَّما تصادم الإنسان مع حقيقة هرمه، وتأجَّج الألم والعجز بداخله ، لجأ إلى الماضي، وكأنَّه يقاوم الزَّمن ويُصارعه من خلال استحضار الماضي، ولأنّ الشّعراء ملوك الكلام، ومرهفو الحس، ومُطلقو العنان لتعبيرهم ، وخيالهم الجامح، وبيانهم السّاحر، نجد أنّهم خيرُ من تناول هذا الموضوع، وعالجه، وصوَّره تصوير المُجرِّب لا المُشاهد، وخاصَّة المُعمّرون منهم ؛ فهم الذين خاضوا حروبهم النّفسيّة والجسديّة مع الزّمن، وترك ندباته عليهم، ومنهم النَّمر بن تولب العكلي[2] الذي صوَّر تجربة الشّيخوخة، ورحلته مع المشيب، ومعاناته بسببه، يقول (الطويل):[3]

لَقَد أصْبَحَ البِيْضُ الغَوَانِي كَأنَّمَا ... يَرَيْنَ إذَا مَا كُنْتُ فِيْهِنَّ أجْرَبَا
وكُنْتُ إذَا لاقَيْتُهُنَّ بِبَلْدَةٍ ... يَقُلْنَ عَلَى النَّكْرَاءِ أهْلاً ومرحبا
ولَسْتُ بِشَيْخٍ قَدْ تَوَجَّهَ دَالِفٍ ... وَلَكِنْ فَتَىً مِنْ صَالِحِ القَوْمِ عَقَّبَا

نصٌّ ينزُّ ألماً وحسرة، يُهمّش الواقع، ويُعلي شأن الماضي، تتصارع المفردات فيه بين وتري الزَّمن(الماضي-الحاضر) كما يتصارع الشّاعر مع دهره، وأوَّل ما آلم الشّاعر في تجربته مع الشّيخوخة هو عزوف النّساء الجميلات (البيض الغواني) عنه، وإبعادهن إيّاه، ونظرتهن التي تملؤها الشّفقة، وذلك بعد أن كانت نظرات إعجابٍ واستمالة.

الآن بعد غدر الزّمان به، وبنَضَارَتِه، وصحّته، وقوّته...أصبح في نظرهن (أجربا)، في موقفٍ يَظهر فيه مهزوماً، ومُتحسّراً، ومُتألماً.

إنَّ توظيفه لمفردة(أجربا) صبَّ في صميم معناه المُراد؛ إذ إنَّه حرَّرها من دلالتها المُعجميَّة، ووسَّع طيفها الدّلالي، وألقاها في صورةٍ بيَّنت كيف يتمّ تهميشه وتجنُّبه، ولأنَّ وجوده الآنيّ غدا مؤلماً هرب لوجوده السَّابق في الماضي؛ علَّه يجد في استذكار مجده الذي اندثر سلوانه، فابتدأ في البيت الثّاني ب(كنت)، كما نلحظ الفعلين (أصبح ← كنت) مُتقابلين في طرفي صراع، فكلٌّ منهما يشدّ الشّاعر في اتّجاه. وفي استحضار ماضي الشّاعر نجد أنَّ النّسوة كُنَّ يُؤهّلنَ به، ويرمين السّلام عليه عند مُلاقاته، وهذا دليلٌ على إعجابهنَّ به، واستمالته لهن، ولفته لأنظارهن، سواء بشبابه، أم بقوّته، أم بفروسيَّته، وفحولته الشّعريّة.

إنَّ هذا التّقابل، وهذه النّظرة، التي انقلبت من قِبل النّساء، هو من أكثر ما يحزُّ بنفس الشّاعر في رحلته مع الهرم، فما " يزيد في قلق الشّاعر واضطرابه، وربَّما خوفه أيضاً، من هوان الكبر، أنّ النّساء يبدأن غالباً

[1] ينظر: **عليمات** يوسف، 2004- **جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهليّ أنموذجاً**، ط.1، المؤسسة العربيَّة للدّراسات والنشر، بيروت، ص173-174.

[2] النمر بن تولب أحد بني عدي بن عوف بن عبد مناة بن أدّ وهو عكل، صنفه ابن سلام الجمحي في الطبقة الثامنة من طبقات فحول الشّعراء الجاهليّين، وورد عنه أنه كان جواداً، وفصيحاً جريئاً على المنطق، عمَّر طويلاً، وأدرك الإسلام في أواخر حياته، فدخله وحَسُن إسلامه/ ينظر: **الجمحي** محمد بن سلام، 2001، **طبقات الشّعراء**، تمهيد الناشر الألماني جزف هل، دراسة عن المؤلِّف والكتاب لطه أحمد ابراهيم، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ص67-69.

[3] **العكلي** النمر بن تولب، 2000- **ديوان النمر بن تولب العكلي**، تح: محمد نبيل طريفي، ط1، دار صادر، بيروت، ص38. البيض: جمع بيضاء وهي الفتاة الحرة الكريمة، الغواني: جمع غانية، وهي التي غنيت بجمالها عن الزينة، الأجرب: الذي أصابه الجرب، وهو بثر يعلو جلد الإنسان والإبل، عقبا: المعقب ما خلف بعقب ما قبله، دالف: إذا مشى وقارب الخطو فهو دالف.

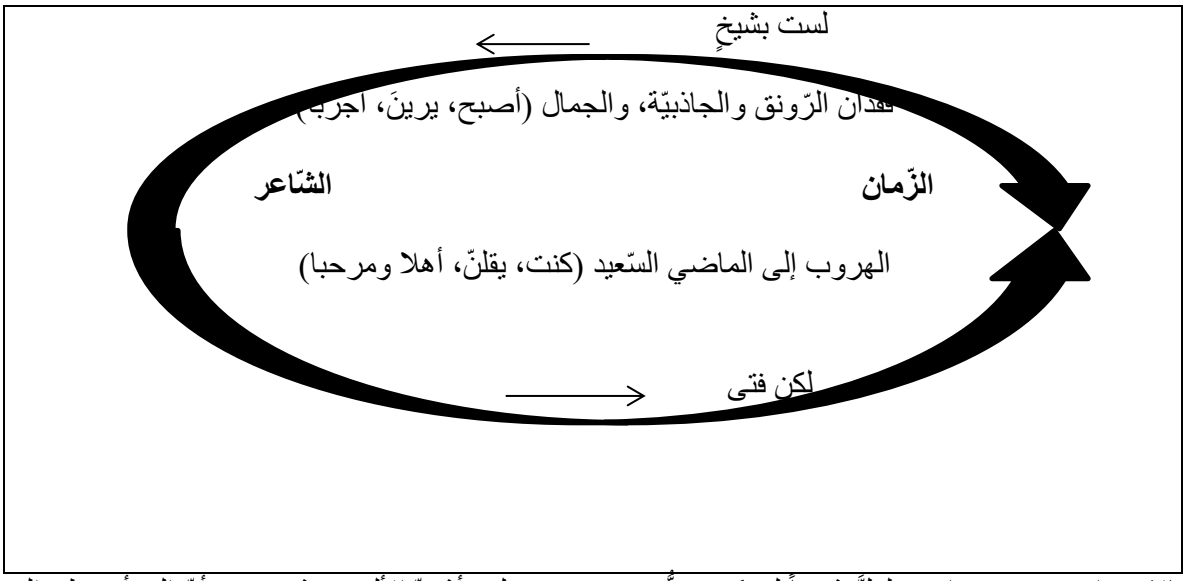

بالازورار عنه وهجرانه. ولعلَّ شيئاً لم يكن يحزُّ في نفسه ويؤلمه أشدّ الألم من شعوره بأنّ المرأة تنظر إليه نظرتها إلى إنسان خالٍ من الرّجولة، فاقدٍ للقوَّة "[1]، ويُضاف إلى ذلك ابتعادهن عن الشّاعر وكأنَّه أجرب.

ثمَّ يختم بنفي عجزه وشيخوخته، في محاولة يائسة منه للتّخلُّص من أنقاض الهرم الذي يرزح تحته، وكأنَّه إن أنكره سيتلاشى ذلك العجز، ويعود لمجده بنكره لشيخوخته (لست بشيخٍ)، إذاً من هو؟

يُكمل في شطره الثّاني مبتدئاً بـــ(لكن) ليستدرك كلامه ويُتمِّمه، فيُصرّح بأنَّه (فتىً)، وهذا كان إعلاناً وتصريحاً بوصوله إلى ذروة اليأس، والإحباط، والحزن، بنكر ماهيته وحاله، مبحراً في خيالٍ، ووهمٍ يتمنّى أن يكون حقيقته، مُقابلاً غدر الزّمان ضربةً بضربة، فيصارعه، ويقارعه وكأنّه غريمه وخصمه، ويمكن تمثيل ذلك على وفق الآتي:

ويُغلِّف هذا التّصادم حالة نكران ختم بها:(لست بشيخٍ ---> لكن فتىً).

وعليه تأكَّدنا أنَّه "ليس أقسى على الموجود الذي يملك الحريّة، ويحنّ إلى الأبديّة، وينزع نحو اللانهائيّة، من أن يشعر بأن لحريَّته حدوداً، وأنّ الزَّمان ينشب أظفار الفناء في عنقه، وأنَّ التناهي هو نسيج وجوده"[2]، فهنا يشعر النَّمر بخيانة الزَّمن له، وغدره به في موقفٍ دراميّ تتصاعد فيه الحسرة بداخل الذّات المُسنَّة، وشعورها بالقهر والعجز.

ومن الطبيعي أن تكون "الصّورة العامَّة لتجربة الشّيخوخة ترتبط بعدم الرضا، والنّفور من المشيب"[3]؛ فمن ذا الذي يُحبِّذ، أو يشعر بالرضا وعدم السخط من حاله عند تجرُّده من كلِّ مظاهر الشَّباب: من جمال، ونضارة، وقدرة، وعزيمة، وصحَّة...

غير أنَّه لابُدَّ من التّغيير أن يطال الإنسان، كما طال الموجودات من حوله، فكلُّ الموجودات لها فترة: ضعف (الولادة)، ثمَّ قوّة (الشّباب)، ثمَّ ضعف (الشّيخوخة) وتنتهي بالموت.

هذه هي دورة الحياة لجميع الكائنات الحيَّة، وعندما يشعر الإنسان بعجزه عن إيقاف هذا التّغيير الذي يحدث له، ويوقن أنّ هناك قوَّة مهيمنة تُسيِّر الكون وليس بيده حيلة، عندها يتقبّل واقعه وشعوره بالعجز، ويحاول ألّا يُقاوم شعوره –أيَّاً كان- كي لا يستمر، فيتقبّله حتّى يمرّ، و لا يُدخل نفسه في صراع لا طائل منه بين ما كان، و ما هو عليه الآن، فـــ" الزَّمان لا يجلب التَّغيير، إنَّما التَّغيير هو الذي يجلب الزّمان. فالزَّمان موجود لأنَّ هناك

[1] **زيتوني** عبد الغني أحمد، **2001- الإنسان في الشعر الجاهلي**،ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات، ص427.

[2] **ابراهيم** زكريا، د.ت- **مشكلة الإنسان**، ص 71.

[3] **عبدالجليل** حسني، 2001- **الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص**، ص381.

نشاطاً ما...وفعلاً خالقاً، وعبوراً مستمرّاً من العدم إلى الوجود...فالزَّمان نتيجة للتَّغيير الذي يطرأ على الوقائع، والموجودات، وأنواع الوجود"[1].

وقد ذُكرت دورة الإنسان الحياتيّة ورحلته مع الزَّمان في القرآن الكريم، في قوله تعالى: ﴿ اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفاً وَ شَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ العَلِيْمُ القَدِيْرُ﴾[2]

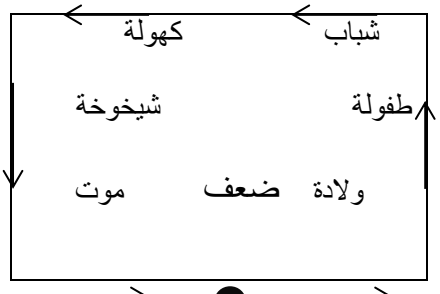

إذاً نقطة البداية هي نقطة النّهاية (الضعف والعجز)، فالإنسان يولد ضعيفاً وعاجزاً، وبعد رحلته الحياتيّة بكلّ ما فيها، وما عاشه، وتلذَّذ به، يعود ضعيفاً عاجزاً، ويموت في هذه الحال، ورغم معرفة الإنسان لهذا إلَّا أنَّه يفتقد لمن يُلقي عليه اللَّوم، ومن هنا أصبح الزّمن العدوّ الأكبر للإنسان، تارةً يقارعه ويحاربه ويلومه، وتارةً أخرى يبثُّ شكواه عبر مقابلة الماضي بالحاضر، وأحياناً يكتفي بسرد أحزانه ووصف حاله، وربَّما غايته في ذلك إيلام الزَّمان، وجعله يشعر بالأسى عليه ؛علَّه يرحمه، وكأنَّ الزَّمان وحشٌ له كيانٌ و وجودٌ واقعي ماديّ، ولكن في الذّهن والتَّصوُّر والخيال، وها نحن أمام سطوة الكلمة الشِّعريَّة، وبوحٍ عميق ومؤثِّر من خلال قول النمر(البسيط):[3]

أودى الشَّباب وحُبُّ الخالَةِ الخَلَبَه ... وقد برئتُ فما بالصَّدرِ من قَلَبَه
وقَد تَثَلَّمَ أنيابي و أدركَني ... قِرْنٌ عليَّ شَديدٌ فاحِشُ الغَلَبَه
وقَد رمَى بِسُرَاه الدَّهرَ مُعتَمِداً ... في المَنكَبَينِ وفي السَّاقَينِ والرَّقَبَه

أمامنا اعترافٌ صريحٌ، واستسلامٌ تامٌّ للضَّعفِ والهرم، وداعٌ للشَّباب والأيام السّالفة عبَّر عنه في كلمات اكتنزت طاقة دلاليَّة عميقة.

فقد افتتح النّصّ بفعلٍ ماضٍ دالٍّ على الهلاك، والبوار، والاندثار، اندثار ماذا؟ اندثار أيام الصِّبا، ولحظات الطَّيش، والعلاقات مع الجنس الآخر(النِّساء) اللَّواتي كُنَّ ينجذبنَ إليه في أيام شبابه، وأوج نشاطه وقوَّته، وكلُّ ذلك أصبح أيقونة في أرشيف ذكرياته الجميلة، فهذا الزّمن انقضى، وولَّى، وطُرِح بعيداً عنه بقوله: (أودى)، كلمةٌ واحدة جعلها حمَّالة دلالات ومشاعر، تنضوي تحتها أمشاجٌ عميقة من الحسرة، واليأس، والحزن.

ثُمَّ يُحاول أن يُعادل كفتي الميزان، ولا يدع الحزن سيِّد الموقف فأتى بالفعل (برئت)، ولكن مِمَّ برئ؟ من حاله السّابق؟ من شبابه، وطيشه، وأيام سؤدده؟

الواضح أنَّه برئ من العشق الذي كان يُشظِّي فؤاده.. داخل تجاويف صدره.. في أيام شبابه، والآن قد سَكَن، وخَمَدت تلك الحماسة التي لابُدَّ للألم أن يرافقها؛ ألمُ الشّوق، والهجر، والصّدّ، ألمُ العشق بحدّ ذاته، وكان ذلك محاولةً مراوغةً منه لإيجاد نقطة سوداء يُسلي بها نفسه، ثُمَّ ينقِّب عن نقطة بيضاء في حاله الآني؛ ليستطيع من خلالها التّعايش مع واقعه، فجعل الحبَّ في أيام الشَّباب مرضاً قد شُفي منه، والسَّلامة، كلُّ السَّلامة في الهدوء

[1] **برديائف** نيقولاي،1960- **العزلة والمجتمع**، تر: فؤاد كامل عبد العزيز، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص162.

[2] القرآن الكريم، سورة الروم، آية 54.

[3] **ديوان النمر بن تولب العكلي**، ص39-40. الخلبة: الخبال وهو الجنون، الخال: جمع خائل مثل كافر وبائع، الخالة الخلبة: الشباب والفتيان الذين يختالون في مشيتهم ويخلبون النساء، قلبه: أي ليس فيه وجع ولا مكروه، فالقلاب هو أن تصيب الغدّة القلب وإن أصابت البعير قتلته، والمراد أنه برء من داء الحب، تثلم: تفلل، أدركني قرن: أي الهرم، فاحش الغلبة: شديد الوطء بغلبته، السرى: جمع سروة وهو سهم صغير.

والعزلة والابتعاد عن طيش الشّباب الرّاحل، ولاسيما أنَّ شاعرنا من المُعمّرين قد عاش عمراً مديداً حتّى (تثلّمت أنيابه) و(أدركه الهرم شديد الوطأة)، ورغم محاولاته لاقتناص الإيجابيّات، وسويعات من الرّضا الواهي، والسّعادة الآنيَّة بالهدوء المزعوم، فإنّه ما يلبث أن يشعر بالهزيمة أمام غدر الدّهر، وضعفه، وعجزه أمامه، (فتثلّم الأنياب) أي تساقط الأسنان وتكسُّرها، هذا النَّسق العلاماتي دلَّ على الهرم؛ إذ تتساقط أسنان الشَّاعر كما تتساقط سنوات عمره وتكاد تفنى أمامه.

إنَّ الشّاعر الجاهليّ "حين يُعمّر طويلاً، فيُنخي عليه الدّهر بثقله وينوء على جسمه بكَلكَله، ويسلب منه كلَّ قوَّة ليدعه في شيخوخته مهيَّض الجناح، واهي القوى، قليل الحيلة، خائر العزيمة، فيزداد بذلك ألمه من الزَّمن، وتزداد حسرته على ما مضى من العُمر"[1] الذي سلبه إيّاه الدهر، وهذا الدَّهر ما يفتأ أن يُهاجم الشَّاعر بسهام متتالية، فهو صيَّاد متوحِّش يستهدف نقاط جاذبيَّة الشَّاعر (المنكبين) فيجعلها هزيلةً، وفاقدةً للرّونق والجاذبيَّة، إضافةً إلى مواطن قوَّته وقدرته(السَّاقين)حتَّى يسلبه القدرة على العَدْو هرباً منه، ويتركه قعيد الفراش، ممَّا يجعله يتلذَّذ بسلبه كلَّ مقوِّمات الحياة وملذَّاتها

إضافةً إلى جعل (الرّقبة) حاملة الرّأس، والجسر الذي يصل الرّأس بالجسد آخر مُستهدَف، تُرى هل كان هذا التّعداد من قِبل الشَّاعر اعتباطيّاً إن سلَّمنا باعتباطيَّة اللُّغة؟ أو كان مقصوداً يكمن وراءه ما يكمن من غايات ومدلولات؟ أو أنَّ لاوعي الشَّاعر كان طرفاً ثانياً مُساهماً في نسج النّص؟؟ والجليُّ أن كلمة(معتمداً) التي أراد بها الدَّهر، تجعلنا نُرجّح أن ترتيبه هذا لم يكن اعتباطيّاً: المنكبين.. ثمَّ الرّقبة، فهو يبدأ بالقسم العلويّ من الجسد (الأكتاف) التي يحمل عليها أثقالاً وهموماً، إضافةً إلى كونها عُنصراً جماليَّاً تزيد جاذبيّة الرَّجل بضخامتها وامتلائها، ثمَّ يذكر القسم السُّفلي من الجسد(السّاقين) اللتين تحملان الجسد وتنقلانه من مكان إلى أخر، ومن دونهما يكون عاجزاً تماماً.

عبر هذه الثُّنائيَّة الجسديَّة تبيَّن أنَّ الدَّهر قد أجهز على جسد الشّاعر تماماً، أمّا الرّقبة وهي آخر الأعضاء تعداداً، فالألم الذي نزل بها ربَّما يعود لثقل الرّأس الذي تحمله، وما هذا الثّقل إلَّا ثُقلٌ يحمل في طيَّاته الأفكار، والهموم، والأحزان، وإنَّ " الدَّهر في ثقافة الجاهليّين مُعادلاً* للقوَّة الغيبيَّة التي تُعطِّل نشاط الإنسان، فيقف أمامها خائر القوى مسلوب الإرادة "[2]، وعليه ... فأيُّ تعطيلٍ للنّشاط قد بقي بعد ضرب هذه المواطن الثّلاث، وإصابتها بالهرم والوهن؟!

سطوة الزّمن:

إنَّ قانون الكون قائمٌ على الثُّنائيَّات في مختلف المجالات، وعلى الأصعدة كافّة(الحياة/الموت، النّور/الظّلمة، القوَّة/الضَّعف، فاعل/منفعل...)، وإن أمعنا النَّظر، وحاولنا تعميق فكرنا وتأمُّلنا لكلِّ ما حولنا نجد أنّ وجود طرف أحد الثُّنائيَّات شرطٌ لانعدام الطَّرف الآخر، وانعدام طرف شرطٌ لوجود الآخر، ولنضرب مثلاً على سبيل الإيضاح: عندما يحوم طيف الموت حول إنسان ما، يقتضي ذلك انعدام روح الحياة في هذا الإنسان، و وجود سُلطة مهيمنة وقويّة تفرض نفسها على شخصٍ ما، أو جماعةٍ ما، يقتضي انعدام الشّخصية القويّة، وروح القيادة، وهيمنة الضّعف والخنوع عند الطَّرف المُسَيطَر عليه، ولولا هذا لما كان للطّرف الأوّل وجود، وهلُمَّ جرَّاً...

إذاً "ما ثَمَّ إلَّا وجودٌ وعدم. ولكن العدم غير معدوم، بل حضرة لها حقائقها... فالعدم حضرةٌ سالبة بمثل ما أنَّ الوجود حضرةٌ موجبة. وهما<أي الوجود والعدم> أشبه بالظّلمة والنُّور والمرآة والشَّمس التي تبدو فيها"[3]، والمقصد في أنَّ العدم حضرة سالبة ، والوجود حضرة موجبة هو أنَّ العدم أينما وُجد وفي أي مجال يكون منفعلاً وليس فاعلاً، مقهوراً وليس قاهراً، ويكون موقفه سلبيّاً إزاء إيجابيَّة وجود ضدّه، فهو يتلاشى في حضرة قوَّة الآخر، وهذه القضايا والأمور وقف عندها الشَّاعر الجاهليّ المُفكِّر المُتأمِّل في أسرار هذا الكون الشّاسع ، خاشعاً أمام هذه الأسرار خشوع العابد في محرابه، يحاول التّخلُّص من قلق المجهول، وشبح الموت، وكيد

[1] **زيتوني** عبد الغني أحمد، **2001- الإنسان في الشعر الجاهلي**، ص334.

[2] **عليمات** يوسف، 2004- **جماليات التحليل الثقافي الشعر الجاهليّ أنموذجاً**، ص 189/* معادلاً: هكذا وردت، والصواب بحسب السياق معادلٌ.

[3] **محمود** مصطفى،1986- **الوجود والعدم**، ص61.

الزَّمان وسطوته، عبر سعيه لإيجاد أجوبة لأسئلته التي دارت في خلده، وقضّت مضجعه، وأرَّقت فكره منذ بدء الخليقة، وبدء وعيه الوجوديّ.

فلِمَ هذه الازدواجيّة لعطاء الزَّمان؟ لعلَّ مردَّ ذلك أنَّه كان يمنح الإنسان منذ ولادته وطفولته قوَّةً، وقدرةً، وجمالاً، وشباباً، ثُمَّ وصل إلى حدٍّ نكص فيه على عقبيه؛ إذ إنَّه أصبح يأخذ كلَّ ما أعطى، فأعاد الإنسان سيرته الأولى كما كان في ولادته وطفولته، ضعيفاً عاجزاً منتظراً ما سيواجهه بعد الحتف.

ثُمَّ لِمَ وُجِدَ أساساً الموت والفناء؟ لم لا يكون الإنسان خالداً لا يفنى؟ لم لا يهرب من الموت، ويحتال عليه، ويخدعه، ويغلبه...؟ وكثيرٌ من الأسئلة استدعاها موقف الإنسان تجاه الدّهر والزَّمان، وإحساسه بسطوتهما عليه وعجزه تجاههما.

إنَّ المُشكلة الكُبرى التي كانت تُمثِّل القلق الوجوديّ كانت مشكلة الموت، وظلَّت بغموضها تُرهق فكر الجاهليّين، فلم يكونوا على دراية أنَّ أمور الكون لها قوى خفيَّة مُدبِّرة لها، ومنظّمة إيّاها، وهذه القوى تقف خلف حقيقة الموت، وتُحدِّد غايته، وأنَّ هناك سُلطة قاهرة فوق سُلطتهم، ومردُّ ذلك أنهَّم افتقروا إلى الدِّين الذي يفسِّر لهم مغاليق الوجود، وسبب إحساسهم بسطوة الزَّمن وقهره[1] .

ولأنَّ النَّمر أدرك الإسلام، وأسلم، وحَسُنَ إسلامه، نجد النّفحات الإسلاميَّة، واليقين، والتَّسليم بالقضاء والقدر، تَقْطُرُ من حِكَمِه، فقد تفتَّحت بصيرته وغدا على علمٍ أنَّ الموت قدرٌ محتوم لا مهرب منه، وما يصيب الإنسان لم يكن ليخطئه، وهذا ما استقرَّ بفكر النَّمر، ومعتقده، بعد أن استنار بتعاليم الدّين الإسلاميّ.

حصل على الأجوبة لأسئلةٍ كانت غامضة وتشغل الإنسان الجاهليّ، وكانت حِكَم الشَّاعر الجاهليّ، وأمثاله، وقصصه التي يبُثُّها في أشعاره بعد دخوله في الإسلام تخرج من القلب لتَصُبَّ في القلب وتلامس شغافه، وتُؤثِّر في الوجدان، يقول(المتقارب):[2]

فلـو أنَّ مِـن حتفـه ناجيـاً ... لألفيتَهُ الصَّدَع الأعصَما

باسبِيلَ ألقَت به أُمُّهُ ... على رأسِ ذي حُبُكٍ أيهَما

إذا شَاءَ طالعَ مَسجُورةً ... تَرَى حولها النَّبع والسَّاسَما

يَكُونُ لأعدائه مَجهَلاً ... مَضِلاً وكانَت لهُ مَعلَما

سَقَتْها الرَّواعدُ مِنْ صَيِّفٍ ... وإنْ مِنْ خَريفٍ فَلَن يَعدَما

أتاح لهُ الدّهرُ ذَا وَفضَةٍ ... يُقلِّبُ في كفِّهِ أسهُما

فَراقَبه وهو في قُتْرَةٍ ... ومَا كَان يَرهَبُ أن يُكلَما

فَأرسلَ سَهمَاً لهُ أهْزَعاً ... فَشَكَّ نَواهِقَهُ والفَما

فَرِيغُ الغِرارِ على قُدرةٍ ... ومَا كَان يَرهَبُ أن يُكلَما

---

[1] يُنظر: **عبدالجليل** حسني، 2001- **الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص**، ص323.

[2] **ديوان النمر بن تولب العكلي**، ص 118-120. الصدع: الوعل بين الجسيم والضئيل، وهو الوسط من كل شيء، العصمة: بياض في يده، الأيهم: أعمى الطريق لا يهتدي إلى طريقه أحد، الحبك: الطرائق، إسبيل: اسم مكان، مسجورة: عين مملوءة، النبع والساسم: أسماء نبات، مجهل: أرض يجهل سالكها الطريق، معلم: أرض يهتدي سالكها بعلاماتها، الوفضة: الجعبة، النواهق جمع ناهق، والناهقان هما عظمان شاخصان من ذي الحافر في مجرى الدمع، فريغ الغرور: مُفرَّغ الحدود؛ أي حد النصل، يشب: يرفع يديه حين أصاب السهم، الولوع: القدر والحين، مغرم: رغم أنفه، تُبع: ملك اليمن، أبرهة الأشرم: ملك الحبشة.

فَـــــظَـــــلَّ يَـــــشِـــــبُّ عَ كَـــــــــــــــــــانَ
كـــأنَّ الولُو بِـــــصِـــحَّتِهِ مُغرَمَا
أتَـــــى حِـــصــــنَــــهُ مـــا وأبــــــــــــرهَـــــــــــةَ
أتَى تُبَّعاً الـــــــمَــلِكَ الأعْظما

إنَّ" القصيدة أقدر الوسائل الفنيّة على التَّعبير عن متناقضات الوجود الإنسانيّ بما يجيء معها من صراع، وتوتُّر، وتمزُّق...الشَّاعر هو ذلك المخلوق الناطق الذي يُريد أن يُنظِّم أحلامه، ويُسيطر على هذيانه، ويتحكَّم في أحاسيسه، لكي يصوغها على صورة موسيقا تمتزج فيها الفكرة بالعاطفة، وتتَّحد فيها المعاني والألفاظ"[1] وفي هذه الأبيات تعبيرٌ عن المتناقضات، واتّحاد المعاني بالألفاظ التي سنبحر بها معاً مُتَتَبعين ذكاء الشّاعر الحادّ، وفكره الواعي، ومقدرته على إيصال رسالته، ولنبدأ بـــ:

(لو) حرف امتناع لامتناع، أي يستوجب حدوث الفعل الأوَّل لحدوث الفعل الثّاني، وإن امتنع الأوّل عن الحدوث سيمتنع الثّاني أيضاً، والآن لنرى ما الذي اشترط الشّاعر حدوثه ليتحقَّق الفعل الثَّاني (النّجاة من الحتف) من الموت المُقدَّر المحتوم؟ هل يستطيع المرء في العصر الجاهليّ أن يهرب من موته؟ أو هل راودت هذه الفكرة أذهانهم واعتقدوا بها؟ نعم.. كانوا يرون أنَّ الهروب من القدر، والموت، ممكن ووارد الحدوث، وهذا كان قبل مجيء الإسلام وبثِّ تعاليمه، وتفتُّح بصائرهم على الحقائق المُسَلَّم بها التي لا يُمكن النِّقاش فيها، أو الطّعن بها، ومنها: الموت.

فنجد الشَّاعر الجاهليّ قبل مجيء الإسلام لا يؤمن بأنَّ الموت قدر محتوم على المرء، ولا يستطيع الهروب منه، لذلك نرى الشَّاعر زهير بن أبي سُلمى يقول(الطويل):[2]

رأيتُ المَنَايا خَبْطَ عَشواءَ مَنْ تُصِب تُمِتْهُ وَمَنْ تُخطِئ يُعَمّرْ فَيَهـــرَمِ

نلحظ بأنَّه لا يُسَلِّم بأن الموت مُقدَّر، ويجد أنَّ شبح الموت يأتي عشوائيَّاً يقتنص من يقتنص، ويهرب منه من يهرب، هذه نظرة الشَّاعر الجاهليّ عموماً إزاء الموت والقدر، أمّا شاعرنا (النَّمر) ولأنَّه أدرك الإسلام أواخر حياته في المرحلة التي يتفرَّغ لها الشَّاعر للحكم والأمثال والمواعظ، يضع عُصارة خبراته الحياتيَّة وتجاربه في نظمٍ بديع.

ونلمس في بوحه الشِّعري تأثير الفكر الإسلاميّ السَّليم الخالي من العقائد الجاهليّة، والأفكار العشوائيَّة التي كان يتصوَّرها ويتخيَّلها الجاهليّ نظراً لخوفه من المجهول ومن القوَّة الغيبيَّة، و لافتقاره لمن يدلُّه على أجوبة تُشفي أنَّات فكره، لهذا نجد النَّمر قد استخدم أسلوب الشَّرط ليجزم ويقطع الشكَّ باليقين أنَّه لا مهرب ولا مفرَّ من حتميّة الموت، ومن سطوة الزَّمن وسيرورته (ولادة- طفولة- شباب- كهولة- شيخوخة- عجز وضعف_ موت) هذا إن عاش المرء كلَّ مراحله الحياتيَّة، فمن الوارد أن يأخذه شبح الموت في أي مرحلة عمريّة، وفي أيّ وقت، وأيّ مكان.

أمّا إن تنعَّم بمراحله كلِّها لابُدَّ له أن يتهيَّأ للقائه مع منيَّته، وألَّا يحاول الهرب؛ لأنَّه لا مفرَّ ولا منجا من ذلك، وليؤكِّد فكرة استحالة الهرب جاء بأسلوب الشَّرط مُبيِّناً أنَّه إن وُجِد من استطاع الهروب والنّجاة من حتفه، لابُدَّ أن يُلاقي مصير (الوعل) الخرافي الذي سرد قصته، وخوف أمِّه عليه من الموت، وما فعلت لتحميه وتُنجيه، فكان مصيره الصَّيد على حين غرَّة ثمَّ الموت، وكذا الهارب من قدره الذي يعتقد أنَّ بوسعه النجاة، وأنَّه يستطيع أن يأوي إلى جبلٍ يعصمه من الموت.

إنَّ قصَّة (الصَّدع) التي سنتتبَّع تفاصيلها الآن ونحاول الوقوف على الرّموز والدّلالات التي أرادها من ذكر كلِّ تفصيلٍ، وكلمة، وجملة، هي عُصارة تجربة النَّمر الشِّعريَّة، وخُلاصة الحكمة التي توصَّل إليها.

فالتَّجربة الشِّعريَّة تتشكَّل عند الشَّاعر عند تفاعله مع مجموعة من العناصر –وهي هنا: الزّمان، الدّهر، الموت- وبروز شيء مُلفت -الهروب من الموت وقهر الكائن الموجود وإرساله إلى العدم والفناء(الصَّدع)-

[1] **ابراهيم** زكريا، د.ت- **مشكلة الفلسفة**، د.ط، مكتبة مصر، الفجالة، ص 224.

[2] **أبو سلمى** زهير،1988- **ديوان زهير بن أب سلمى**، شرح وتقديم: علي حسن فاعور، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت، ص110.

فيشعُر المُبدع أنَّه قادرٌ على الكشفِ والتَّعبير عن العلائق الخفيَّة بين الأشياء بطريقة يعجز عقل الإنسان البسيط عن مُعالجتها ، ومن خلال هذه العمليَّة يُحقِّق الشَّـاعر ذاته، ويُجدِّد إبداعه، وينتقل من محطَّة إبداعيَّة إلى محطَّة إبداعيَّة أُخرى أرقى، وأدقّ، وأعظم، وتتفاعل التّجارب الشِّـعريَّة السَّـابقة جميعها مع التَّجربة الجديدة التي يمرُّ بها الشّاعر، فالإبداع الشّعريّ عُصارة تجارب الحياة عامّة.[1]

وقد عبَّر النَّمر من خلال هذه الأبيات عن أنَّ من ينجو من موته لابُدَّ أن يكون (صـدع- أعصـم)، وهذا ليس بموجود، ومن ثَمَّ لن يهرب أحد من منيَّته، وهذا الصَّـدع الذي جعله مثلاً يُضـرب، قد ولدته أمّه في إسـبيل على رأس جبل متعدِّد الطُرق، يتيه من يحاول الصعود إليه واستكشافه، وليزيد في مدى قدرة هذا الجبل على التَّخفِّي وصعوبة الصّعود إليه بطرقه المتعدِّدة، والمُتشعِّبة، والمُتيِّهة.

نجد النَّمر هنا شُـجاعاً في اسـتخدامه للُّغة، فقدَّم وأخَّر، وحذف وقدَّر (ذي حبك) حذف الموصـوف (جبل) وأبقى صـفته، لزيادة عمق المعنى؛ أي إنّ هذا الجبل لا سـبيل للوصـول إليه، وكأنَّه غير موجود إلَّا في عين الوعل وأمِّه لدرجة أنَّ الشّاعر في أثناء حديثه عنه حذفه وأخفاه، واكتفى بذكر صفته الدَّالة على استحالة البلوغ إليه، وهذا كلَّه إمعان من الشَّاعر، وتعبير مُفرط لشدَّة استعصام الوعل بمكانٍ ناءٍ بعيد صعب البلوغ، لذا رُبَّما يظنُّ ظانٌّ أنَّه سينجو من حتفه، كما اعتقدت أمّ الوعل.

وهذا الموضـع الذي أودعته فيه أمُّه فيه كلُّ ما يحتاجه الوعل لاسـتمراريّة الحياة: ماءٌ صـافٍ عذب(عين مسـجورة)، وعبَّر عنها النَّمر كما فعل بالجبل؛ حذف (العين) واكتفى بصـفتها (مسـجورة) وهذا يدلُّ على أنَّها خفيَّة على غير الوعل، هو وحده من يعرف موضعها، ومن يراها، ومن ينهل من مائها العذب.

إضـافةً إلى الكلأ المُنتشر في أنحاء الجبل، وحول العين المسجورة، يرعى منها(النَّبع-السَّاسم)، فنلاحظ أنَّ الظُّروف المُحيطة مُهيَّأة ليعيش حياة بعيدة عن الخطر، أو الجدب، أو قلَّة المرعى... ولن يضـطر لمُغادرة هذا المكان الآمن للبحث عن ماء وكلأ ورُبَّما حينها يتعرّض لخطر الصَّيد أو الافتراس في رحلة بحثه. وعليه فالبيئة مهيَّأة لحياة سرمديَّة إن صحَّ التَّعبير، وخصوصـاً أنَّ السَّاسم الذي خصَّـه الشَّاعر بالذِّكر نباتٌ دائم الخُضـرة، وعليه، فطعام هذا الوعل الصَّغير لا ينفد.

ثُمَّ يُقابل بين طرفي صـراع (العدوّ/الخصـم، الموت/الحياة، الصَّـياد/الوعل) في موقفين متضـادَّين (مجهلاً/معلما) و"تنمو الرّؤية في النّص من خلال البُنية الضِّدّيّة... و ورود الكلمات المُتضادَّة خارج السِّياق لا يعني بالضـرورة تضـادَّها داخل السِّـياق"[2]؛ فأحياناً يعني تكاملاً، وتتميماً للصُّـورة والموقف المُعبَّر عنه، فهذا التّضاد الذي يحمله المكان(مجهل/مَعلَم) يصبُّ في صميم سمة المكان الآمنة لهذا الماعز البريّ الذي اتَّخذ جبلاً من أرض إسـبيل برجاً يقيه الموت، وغدر الزَّمان، وسـطوته، لكن هيهات أن يعصـمه هذا البرج، فمهما فرَّ من قدره المحتوم لا بُدَّ له من الوقوع.

وقد ورد في الذّكر الحكيم مسألة الفرار من الموت، المسألة العبثيّة التي لا طائل منها، وذلك في قوله تعالى﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَ إِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3]

لذلك تلك الامتيازات لمعقل الوعل لم تُغنِ عنه شيئاً، فعندما حان أجله اهتدى إليه الصَّيَّاد رغم كلّ تلك المزايا والتّفضـيلات لمكانه، حين (أتاح له الدَّهر) أي قُدِّر له أن تنتهي حياته، ويودِّع أيامه النَّابضـة بالرُّوح، والحيويَّة، جاء الموت على هيئة صـيَّاد يختار أيَّ من السِّـهام التي سـيصـيبه بها، مراقباً لهذا الوعل وهو في عيشٍ رغيد، مطمئن، لا يخشـى شيئاً، و لا يرهب خطباً... فأخذه على حين غرَّة في وضـعٍ مُترعٍ بالطمأنينة والسَّلام، فكانت الصَّـدمة و المُفاجأة أنَّ المنيَّة ستُصـيب كبد صـاحبها إن دقَّت سـاعته، ولن تمنعها عنه كلُّ الاحتياطات الواهية، والوسـائل الآمنة، والأماكن الهادئة التي ينُزُّ منها الخيرُ نزَّاً: أمطار صـيفاً، وشـتاءً، وخريفاً تجعل (العين

[1] ينظر: **قاسم** عدنان حسين، د.ت- **التَّصوير الشِّعري رؤية نقديَّة لبلاغتنا العربيَّة**، د.ط ، الدار العربيَّة للنشر والتوزيع، مصر، ص 28.

[2] **جداونه** حسين، 2022- **جدليّة التَّضاد في الموروث البلاغي والنقدي**، ط.1، طبعة إلكترونيَّة، الأردن، ص22.

[3] سورة الأحزاب، آية16.

المسجورة) لا تجفُّ أبداً، بل في وفرة دائماً، ويسقي الغيث النّباتات -دائمة الخضرة- التي منها يقتات مَن ألقته أمُّه في هذا المكان خوفاً عليه من أذىً يمسُّه، أو صيَّاد يقتنصه...

فما الذي حدث بعد هذا الاحتراز كُلِّه؟ بدأ هجوم الدّهر ولاح شبح الموت في الأفق مُتهيّأً لاصطحاب روح(الصَّدع)، وباءت حيلة الهروب من القدر بالفشل، وتقهقرت الإرادة والتَّشبث بالحياة أمام سطوة الدَّهر الذي جعل آخر سهمٍ في جُعبة الصَّيَّاد يستقرُّ في وجه الفارّ من حتفه.

يخترقُ السّهم الأخير فم الوعل وأنفه ويشطرهما، هذا السّهم كان الأمل الأخير لنيل الصَّيَّاد مراده، وبالوقت ذاته كان الأداة التي تفصل الوعل عن حتفه في ذلك الموقف.

وقد صوَّر النَّمر السَّهم حاذّاً ، فلم يُجهز على الوعل فحسب إنَّما أجهز على فكرة الخُلود برمَّتها، وقضى على مُعتقد الهُروب، و الاستعصام من المنيَّة، في وقتٍ كانت الفكرة قد وصلت ذروتها في الذّهن حتَّى تمَّ تصديقها من خلال(الاطمئنان، وعدم الرَّهبة من الزَّمان الذي يجلب معه الرَّهبة من الموت بوصفه ضيفاً لم يطأ أهلاً، ولم يحلّ سهلاً على مُضيفه)، لهذا نجد(ما كان يرهب أن يُكلَما) مكرَّرة مرَّتين؛ لتعظيم مُصاب (الوعل /فكرة الخلود)، للإشارة إلى تضاعُف حجم المُفاجأة تبعاً لحجم الطمأنينة المزعومة، وترسيخ فكرة نجاح الحيلة(الهروب من الموت والتَّحصُّن منه). إنَّ " كلّ فهم عميق للنَّصّ هو التقاء بين خطابين-بين خطاب الذَات القارئة المضمر وخطاب الموضوع المقروء- أي هو حوار بينهما"[1]، وعليه فالوعل ما كان إلَّا رمزاً للإنسان الذي يظن أنَّه يغلب الزّمان، ويحتال عليه، ويحاول الوصول لسرّ الخُلود، وعدم رؤية ذلك الضيف غير المُرحَّب به.

إنَّ امتلاك الإنسان لأيّ شيءٍ كان يعدُّ زيادة في قائمة ممتلكاته وما يحوزه، إلَّا امتلاك الزَّمن فهو يُعدُّ نقصاً وليس زيادة؛ لأنَّ كلَّ يوم يمرُّ بالمرء يأخذه من الزّمن، لكن بالوقت نفسه يُؤخذ من رصيد عمره وينقص منه يوم، وهكذا يكون المكسب قرين الخسارة، متقابلان يُصارع أحدهما الآخر، ولهذا كانت تجربة الإنسان مع الزَّمن تجربة وجوديّة يقترن فيها الإحساس بالزَّمن مع الإحساس بالفناء والعدم.[2]

وهذا ما آل إليه (الصَّدع) بعد محاولاته الأخيرة اليائسة للتَّشبُّث بالحياة قبل أن يطرحه الموت أرضاً، ويجعله في عداد الفانين، وقائمة المعدومين، وتمثَّلت محاولته الأخيرة برفع يديه وجسده نحو الأعلى إلى السَّماء(يشبُّ)، وكأنَّه يريد اللّحاق بروحه التي تخرج لاسترجاعها واستبقائها، وحركته اللّا إراديَّة عند إصابته كانت أيقونة ترمز إلى محاربة الكائن الحيّ شبحَ الموت، ومحاولته الاحتفاظ بروحه التي تنتفض وتخرج من جسده، وسرعان ما غلبه الموت وأجهز عليه، وباتت محاولاته وأمله في سراب حياته المُنصرمة، أمَّا (الولوع) وهو من أسماء الدّهر فكان على عجلة لتحقيق هدفه المُتمَثِّل بجعل الوعل يتلاشى في العدم، وكأنَّه كان يعيش رغم أنف الدّهر، فأتى إليه الموت مُرسلاً ومبعوثاً، وكأنَّه جنديٌّ لديه مُهمَّة، ليأخذ روحه، ويجعل عجلة (الوجود والعدم/الحياة والموت) في دوران مستمر، ولو كانت الحِيل تنفع، أو القوَّة تمنع ضدَّ القدر المحتوم، وسطوة الزَّمن، والموت، لنجا منها (تُبَّع) ملك اليمن الذي حكم بلاد اليمن كلها:(حمير، سبأ، حضرموت)، و(أبرهة) الحبشي الذي غلب تُبَّع، وحكم اليمن مُدَّة، وترك فيها أثراً قويَّاً، فهاتان القوَّتان العظيمتان، والسُلطتان اللتان تتنازعان، غلبت إحداهما الأُخرى وسيطرت على الحُكم، وامتدَّ نفوذها، وقوَّتها، وسطوتها، ومع ذلك لم يُدفَع عنها ما هي فيه من قوَّة، وسُلطان، ونفوذ، وسؤدد...عندما حان الأجل وقرع الموت أبواب الحياة.

فتُبَّع: فرض قوَّته وسطوته على بلاد اليمن (حمير، سبأ، حضرموت).

في حين أنّ أبرهة: فرض قوّته وسطوته على تُبَّع.

بينما فرض الدَّهر / الزَّمان: سطوته وهيمنته على كُلٍّ من تُبَّع وأبرهة.

وبذلك يكون الأخير هو القاهر صاحب السُّلطة والسّطوة، لا يهرب منه كائن، ولا ينجو من قبضته مخلوق.

[1] **روميّة** وهب، **1996- شعرنا القديم والنّقد الجديد، وهب روميّة**، د.ط، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، ص 22.

[2] ينظر: **عبدالجليل** حسني، 2001- **الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص**، ص300.

ويتبيَّن معنا مَّما سبق أنَّ" المصدر الأوَّل للحكمة تجارب البشر، وذكاؤهم الحاد، وبصائرهم النَّفاذة، وتأمُّل الماضي والحاضر، وقياس الثّاني على الأوَّل، والنَّظر في جوانب الحياة، واستخلاص العبرة العامَّة من المواقف الخاصَّة"[1]

إنَّ توظيف التُّراث، وبعثه من مرقده، والاستشهاد به، ومقابلة (الغالب والمغلوب) كان خاتمة لرمزيّة قصة الوعل الدَّالة على استحالة فكرة الخلود، وبذلك نُسدل السِّتار على فكرة (سطوة الزَّمن) بعد أن أبحرنا في أدقِّ تفاصيلها، لنؤكِّدها، وننفي أيّ مزاعم أُخرى لـــ:(عبثيَّة الحياة، عشوائيَّة المنايا، الخلود المزعوم، السَّعادة والقوَّة السَّرمديَّة...)

ويُمكن تمثيل الدّائرة المُغلقة لـ: الفريسة، والصياد، والموت، وختام قصة الوعل على وفق الآتي:

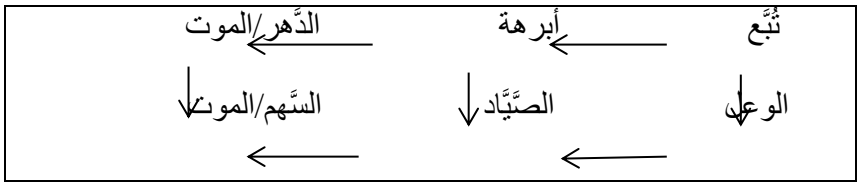

إنَّ كُلاًّ من (الوعل/الصَّيَّاد، تُبَّع/أبرهة) مخلوقات موجودة في الكون تنبض بالحياة، أحدهما (الصّياد- أبرهة) كان سبباً لموت الطّرف الآخر(الوعل-تُبَّع)، وهذا المُسبِّب لقي أيضاً المصير ذاته، ليكون هؤلاء الأربعة تحت سقف واحد، ويُظَلِّلَهم قدرهم المحتوم، والدَّهر القاهر.

الخاتمة:

من خلال سعينا في مُدارسةٍ متأنيَّة للكشف عن كيفيَّة تعامل النَّمر مع مسألة الزّمان، والموت، والوجود والعدم، وما ينبثق منها من ثُنائيّات أخرى من مثل: (الماضي/الحاضر، الشّباب/الشّيب، القدرة/العجز، الحياة /الموت...) تبيَّن معنا أنَّ الشّاعر آمن بوجود قوى عليا تحكم الكون، وتُنظِّمه، وتُسيِّره، وهذه القوى هي غيبيَّة إلهيّة، فلا شيء في هذا الكون الشّاسع يكون اعتباطيَّاً، بل مُنظَّماً، ومُقدَّراً، ومُسيَّراً، لذا نفض يديه من تراب الدُّنيا.

كما سلَّم بحقيقة العدم الذي يعقب الوجود، وحقيقة ارتباط هذه الثُّنائيَّة ببعضها؛ إذ لا جدوى من الإنكار أو الهروب من العدم المحتوم، أو التّقوقع داخل شرنقة، ولكن هذا لم ينفِ أو يُلغِ الألم النَّفسي الذي تعرَّض له الشَّاعر حين نزل عليه الزّمان بوبالٍ من السِّهام التي أصابت كبد شبابه، وقوَّته، وعنفوانه، وتركته شيخاً مهزولاً، ضعيفاً، متخبِّطاً بين ماضٍ سعيد، وحاضرٍ أليم، فاتَّهم الزَّمن بالخيانة، وحاول مُقارعته ومصارعته عبر استحضار أمجاده الماضية ، وإنكار حاضره، ولم تُخمِد نيران الحسرة والألم بداخله إلّا معرفتُه أنّ هذا هو السّير الطبيعي للحياة، فكلّ كائن حيّ لابُدّ أنّ يمرَّ بهذه الأطوار الحياتيّة : ولادة(ضعف)، وشباب(قوّة)،

[1] **طليمات** غازي، **الأشقر** عرفان، 1992- **الأدب الجاهليّ قضاياه أغراضه أعلامه فنونه**، ط1، دار الإرشاد، حمص، ص208.

وشـيخوخة(ضـعف)، ثم تنتهي بالموت، فشـموليَّة الاندثار سـتطال كلَّ ما في الكون من موجودات طال زمن وجودها أم قَصُر.

كما كان لتأثير الإسلام وما جاء به الرَّسول صلى الله عليه وسلم دورٌ في تقبُّله حالته التي آل إليها، وتشكُّل نظرته العامَّة للعجز، والضعف، ثمَّ الموت الذي يأتي به الدّهر، فتميَّز، وتفرَّد، عن نظرة أقرانه من الشُّعراء في عصـره، بفكره المُنفتح، و بصـيرته النّافذة، وتحرُّره من قيود الوعي الجمعيّ السّـائد في عصـره، وانعتاقه منه، مُسلِّماً بفكرة سطوة الزَّمن ، وحتميَّة الموت المُقدَّر الذي لا طائل من الهروب منه أو الاحتيال عليه، مُجهزاً على فكرة الخلود الواهية ، مطوّعاً اللّغة بطاقاتها الدَلاليَة، وسـحرها، و ثنائيّاتها الضِّـديَّة في سـبر أغوار نفسـه، وسكب ما يمور بفكره، وخلده في نظمٍ بديع يأخذ بتلابيب المرء، ويشُدُّه شدَّاً.

المصادر والمراجع:

القرآن الكريم.

1) **ابراهيم** زكريا، د.ت- **مشكلة الإنسان**، د.ط، مكتبة مصر، القاهرة.
2) **ابراهيم** زكريا، د.ت- **مشكلة الفلسفة**، د.ط، مكتبة مصر، الفجالة.
3) **أبو سلمى** زهير،1988- **ديوان زهير بن أبي سلمى**، شرح وتقديم: علي حسن فاعور، ط1، دار الكتب العلميَّة، بيروت.
4) **برديائف** نيقولاي،1960- **العزلة والمجتمع**، تر: فؤاد كامل عبد العزيز، مكتبة النهضـة المصـرية، القاهرة.
5) **جداونه** حسين، 2022- **جدليّة التَّضاد في الموروث البلاغي والنقدي**، ط.1، طبعة إلكترونيَّة، الأردن.
6) **الجمحي** محمد بن سلام، 2001، **طبقات الشّعراء**، تمهيد الناشر الألماني جزف هل، دراسة عن المؤلِّف والكتاب لطه أحمد ابراهيم، دار الكتب العلميَّة، بيروت.
7) **رومية** وهب، **1996- شـعرنا القديم والنّقد الجديد، وهب روميّة**، د.ط، المجلس الوطني للثّقافة والفنون والآداب، الكويت.
8) **زيتوني** عبد الغني أحمد، **2001- الإنسـان في الشـعر الجاهلي**،ط1، مركز زايد للتراث والتاريخ، الإمارات.
9) **صليبا** جميل، 1982- **المعجم الفلسفي**، د.ط، ج3، دار الكتاب اللبناني، لبنان.
10) **طليمات** غازي، **الأشـقر** عرفان، 1992- **الأدب الجاهليّ قضـاياه أغراضـه أعلامه فنونه**، ط1، دار الإرشاد، حمص.
11) **عبدالجليل** حسني، 2001- **الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص**. ط1، مؤسَّسة مختار، القاهرة.
12) **العكلي** النمر بن تولب، 2000- **ديوان النمر بن تولب العكلي**، تح: محمد نبيل طريفي، ط1، دار صـادر، بيروت.
13) **عليمات** يوسـف، 2004- **جماليات التحليل الثقافي الشـعر الجاهليّ أنموذجاً**، ط.1، المؤسـسـة العربيَّة للدِّراسات والنشر، بيروت.

14)**قاسم** عدنان حسين، د.ت- **التَّصوير الشِّعري رؤية نقديَّة لبلاغتنا العربيَّة**، د.ط ، الدار العربيَّة للنشر والتوزيع، مصر.
15)**محمود** مصطفى،1986- **الوجود والعدم**، د.ط، دار العودة، بيروت.
16)**هيدجر** مارتن، 1964- **ما الفلسفة؟ ما الميتافيزيقا؟ هيلدرلن وماهية الشعر**، تر: فؤاد كامل عبد العزيز ومحمود رجب السيّد، مراجعة: عبد الرحمن البدوي، دار النهضة العربيّة، شارع عبد الخالق ثروت.

Man and Time in the Poetry of Al-Nimr bin Tulab Al-Akli

A Reading in the Antithetical Binaries

Dr. Muhammad Masoud[1]

Dr. Abdul Rahman Al-Abdullah[2]

Alaa Abdul Samad Al-Salama[3]

Abstract

The dualities of youth and old age, ability and incapacity, life and death, existence and nothingness, have disturbed man, as he has long dreamed of the continuity of his youth, strength, power, and absolute immortality, and the idea of his vanishing existence terrifies him, especially since everything in the universe is destined for nothingness.

How do you deal with this fact? Do you accept it? Or he sought to deceive time and deceive time with its tricks, by evoking the past, denying the present, and employing opposite dualities to contrast every opposite with its opposite. Sometimes to deny it, and other times to complete and confirm it, and if he accepted the truth of the universe and acknowledged it, how did he express it? What role did his culture and religious inclinations play in shaping his perception of the secret of life, the origin of existence, and the inevitability of death?

[1] – At alfurat University – Assistant Professor, Department Of Arabic, Faculty Of Arts and Humanities.
[2] – At alfurat University – Lecturer, Department Of Arabic, Faculty Of Arts and Humanities.
[3] - At alfurat University – Master student, Department Of Arabic, Faculty Of Arts and Humanities.

This is what the research sought to trace and investigate in the poetry of Al-Nimr Bin Tulp, in the light of a modernist critical study, trying to penetrate the depth of its meanings and essence, marginalizing the flimsy veneers and the apparent superficial meanings.

Key words: Time, Man, Antithetical Binaries, Al-Nimr.